توثيق الارتباط بالتراث العربي

بقلم منير صالحي

التراث العربي في اعتبارنا هو وجهة نظر عربية انسانية في الحياة تأثرت بما حولها ثم احدثت اثرا في العالم . وكرامة الانسان وحريته وتبعته عناصر أصيلة في هذا التراث .

لقد استوعبت الجزيرة العربية قبل الاسلام بازمان طوال حضارات مختلفات ، ولكن العربي كان يبحث عن حقيقته فلما جاء الاسلام اكد هذه الحقيقة الايجابية بصورة نهائية .

وشخصية هذا التراث هي التي جعلته يتقبل الحضارات مرة اخرى ويضيف اليها ويتبعها بصورة انسانية شاملة .

ونلاحظ ان الدولة العربية انهارت حين عجز العرب فعلا عن الحفاظ على روح تراثهم البناء ، فان انسانية الاسلام لم تكن ابدا ذريعة لرجحان الظلم الاجنبي ولم يقع العجز العربي الا بعد ان ضعف احساس العربي أولا بحقيقة تراثه .

ولقد استمر هذا العجز في رأينا حتى اليوم على اختلاف الدرجة وحتى معاركنا القومية قامت اساسا على مفهوم ثقافي اجنبي هو سبب هزيمتنا الفكرية ودخولنا في الحضارة بلا رأي مفصولين عن التراث متقبلين للجديد مقلدين .

ولا بد لنا من الاعتراف بحقيقة هي ان احساسنا بأزمتنا الحاضرة من علامات العافية ، فنحن نحاول ان نناقش مشاكلنا وان نرى حقيقة وجودنا في العالم على فهم موضوعي مشترك لحقيقة تراثنا اولا وبما يمكن ان يحمله من اضافات مستعينين بكل ذلك على مواجهة العصر .

لقد أسس تراثنا حضارة انسانية عظيمة قامت على تكريم الانسان والتسامح الفكري فأخذت واغتنت ثم اعطت . ولم يكن هناك فصل بين العلم والادب والالمام المشترك بالثقافات . ولم يقع الانحطاط الا عندما شعر الولاة وحفظة التراث انهم وصلوا الى حد الكفاية . وكان الرد على هذا التجميد في الحقوق والحرية هو قيام الصراع السياسي والفكري بين شعوب الحضارة العربية.

وحينما بلغ تكوين الدولة قمة النزاع على السطوة في نهاية الدولة العباسية اصبح الادب سلطانيا بعيدا عن التراث واقتصر المجهود فيه على المحافظة على شكل الدولة بلا مضمون ولقد امتد هذا الانهيار الفكري حتى سقوط الدولة العثمانية .

وجاءت الحضارة الغربية ، وبدأ دفاع سلبي عن التراث اقتصر على تقديسه وحسبانه مجدا مقيدا في الزمن وهيأ هذا الاستعلاء الاجوف ارضا بلا معالم او حدود للغزو الاوروبي ووجد الاستعمار عقلا عربيا منفصلا اساسا عن التراث فهو فريسة بطبعه كما هزم فكرا عربيا آخر سلبيا كان دفاعه نوعا من الفرار من مواجهة الاستعمار .

واتضحت معالم حركة فكرية جديدة في بداية هذا القرن فاعادت النظر في التراث بعد فهمها للحضارة الغربية وحاولت ان تصنع فكرا جديدا ولكن هذا الفكر الجديد لم يكن كافيا . وتمكن الفكر الغربي من العقول حتى اصبح سلوكا وحياة في بلادنا وامتلأت تعابيرنا بصور مستعارة من الآداب والفنون والافكار .

اننا لا نريد ان يجترفنا التراث القديم حتى نفقد النظر والعمل ، ولا نريد ان يجترفنا التراث الغربي فنفقد الاصالة والارادة ، نريد شيئا حقيقيا يقوم على الاختيار المسؤول وصيانة ثقافتنا العصرية على أسس واقعية اصيلة لا تفقد فيها شخصيتنا ولا ننعزل فيها عن العالم .

هنالك شيء نود ان نذكره ، فان التراث الغربي واحد في جوهره ولكنه دخل علينا بصور مختلفات وهنالك مسافات بين المثقفين العرب اكسبتهم تباينا شخصيا ، حتى التعبير العربي نفسه لم يسلم من تنوع هذه الثقافات . والوسيط الوحيد لاكتفائنا جميعا هو العودة الى التراث الاصيل وقد عرفناه في مطلع هذه الكلمة .

ليس هنالك حتى الآن مجمع عربي واحد يجمع بين المفكرين العرب في وحدة واحدة تنعكس على الشعوب العربية . فهناك مجمع مغربي وآخر سوري وآخر عربي في القاهرة ، وهكذا حتى صعد هذا التنوع الى المجموعات الاخرى من عسكرية واقتصادية .

نخلص من هذا الى تراثنا في هذا العصر بعد ان استقلت الدول العربية ، فنرى اننا جعلنا من التراث في كثير من الاحيان دعاية فكأننا نقوم بما قام به ادباء العصر العباسي الاخير في المحافظة على الشكل ، وقد اثبتت الايام ضعف صنيعنا وانحرفت هذه الدعاية حتى اصبحت

ثجارة ادبية فهجنا هياجا عظيما في فراغ ، وانعزلنا فعلا عن روح التراث .

ان الدراسات الادبية المتقدمة لهذا التراث قليلة تكاد تنفرنا منه . وحركة النقد الحديثة لم تقم اساسا على هذا التراث . ونلاحظ ان الدراسات التي قدمها مثقفونا عن الادب الغربي بالوانه وفنونه أهم واكثر من اي دراسات عربية مقدمة .

ان الذين درسوا القديم انفصلوا عن الجديد ، والذين درسوا الجديد انفصلوا عن القديم . ولا بد لنا من الخروج من هذا كله بنظرة واقعية تقدمية حديثة الى تراثنا ، ونحن واثقون ان الدارسين سيجدون فيه ما يبشرون من مذاهب عربية جديدة في الفنون والآداب .

ولا بد لنا من وقفة على اسس التربية الفنية والفكرية التي ينشأ عليها ابناؤنا في هذا العصر . ان تربيتنا اعطت التراث درجة متأخرة ، وهذا من املاء الاستعمار واثره السياسي والاقتصادي ، فتفرنج المثقفون وانتقلوا انتقالا كاملا الى عالم آخر ، واصبحت الثقافة ضربا من العزلة الضارة بقضايانا جميعا .

ان الغربيين الذين انفقنا كل جهد في محاكاتهم وتقليدهم يسخرون منا لاننا نرد اليهم بضاعة غير أصيلة وهم يتوقعون منا دائما ان نجيئهم بجديد .

لقد كان العرب في حضارتهم حرصاء على التنوع . وتحضرنا هنا حكاية : فان ابن عبد ربه حين جاء من المغرب الى المشرق بكتابه « العقد الفريد » قال المشارقة : « هذه بضاعتنا ردت الينا » وكان هذا في ايام الاختيار المسؤول .

ان صغارنا في المدارس يدرسون دراسات تعقدهم، فما زالت المدارس تهتم باللغات الاجنبية لا لانها مناسبة فحسب ، بل لان سلطانها القديم ما زال مهيمنا على سبل العيش ، ولان أهلها قد بسطوها حلوة سائغة لاطفالهم . ونحن نقدم في الجانب الآخر مادة عربية غريبة خشنة لا جمال فيها ولا الفه لصغار يتفتحون للحياة الجميلة في هذا العصر فيتخرجون بلا شخصية ولا اثر . حتى ادبنا الحديث لا يدرسونه الا من خلال اليوت مثلا وغيره من شعراء الغرب ونقاده .

اذن فلا بد من اعطاء اهتمام خاص لمدرس العربية ، فنحن نراه دائما معزولا محدود الافق مهضوما ، ولا زاد له من الاساليب العصرية الحديثة في تدريس مادة الادب واللغة .

لقد تخرج عشرات الالوف من المدارس العربية وهم لا يحسنون القراءة ويعجزون عن التعبير بانفسهم وهم لذلك منفصلون .

ولقد أصبح التراث حكرا خاصا لفئة محدودة من المثقفين ولم يعد جزءا رئيسيا في علم اي مثقف وتكوينه ، وقد علق بنا هذا القصور منذ عصور الانحطاط كما اسلفنا القول ، ثم رسخ اكثر في ظلال الاحتلال الاجنبي ودام بعد زواله . فكل عيوبنا التي اشرنا اليها في هذه الكلمات كانت هزيمة بيننا وبين انفسنا اولا ثم صارت هزيمة مقدورة امام اعدائنا الكثيرين .

فنحن لم ننهزم امام العلم الحديث كما يعتقد الكثيرون ، فاعداؤنا اصحاب تراث لم ينفصلوا عنه وحولوه الى شيء عصري مقاتل ، وفرضوه فرضا ولم يقولوا ان تراثهم غير عصري لانهم اوجدوه في العصر .

وتراثنا يشهد اننا لم نكن اعداء لحضارة من الحضارات او ثقافة من الثقافات ، وارادتنا هي ان نكون على مستوى العصر من غير مسخ او ضياع .

لا نريد ان نعيش على الآخرين ، بل نريد ان نضيف ونرفض بوعي ، وان يعرفنا الآخرون ، فان نفورنا من تراثنا لا يجعلنا حضاريين ودعوتنا للتقنية العصرية لا يمكن ان تفصلنا من تراثنا ، لان التقنية امر انساني يقبله العرب كما يقبله الآخرون . والعالم يتسع للشخصية العربية كما يتسع للشخصيات الاممية الاخرى في مجال البحث والاختراع والابداع .

ان القضية العربية تمر الآن بمنعطف مصيري خطير، ومقاومتنا وقتالنا ليس رد فعل للهزيمة واخذا للثأر ، فهي خروج الى ذواتنا الحقيقية ، وان نداء جهيرا من تراثنا العربي قد ملأ اسماع الذين يقاتلون في الارض المحتلة ، وهذا هو السبب الاصيل الذي يدعونا الى المزيد من فهم التراث حتى نهيىء لانفسنا عالما واحدا جديدا عصريا بعيد النظر .

لقد كانت هزيمتنا انقطاعا عن تراثنا وادانة لاسلوبنا غير الواعي في الدفاع عن هذا التراث القومي العربي ، ولاننا في اعماقنا لم نرض هذه الهزيمة نعود الى القتال بحقيقة واحدة هي اننا عرب ، وهذا ايمان حقيقي يتحول الى حضارة وخبرة تقوم على تجديد التراث .

ان التخريب الصهيوني قام على اسطورة ، ووجودنا في هذه الارض لم يكن اسطورة ونحن في غفوتنا الطويلة كنا في حاجة الى قارعة نصحو معها على قداسة الارض وهي تراث لا غنى لنا ولا للعالم عنه .

منير صالح